لذة وفائدة

وفرة الذهب، والترف في القديم

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

وفرة الذهب

جاء في الكتاب الكريم أن موسى الكليم حين اذ هُمَّ بعمل خباء المحضر والتابوت ، طلب الى بني اسرائيل التبرّع بالعطاء ، وتقدمة ما تسخو به نفوسهم للرب « فـاتى الرجال والنساء من كل مَن سخت نفسه فجاؤا باسورة وشنوف وخواتم وقلائد كل متاع من الذهب وكل من قدم تقدمة ذهب للرب . »[1] فاجتمع لدى النبي على اثر ذلك ذهب كثير . « فامر موسى ان يُنادى في المحلة ويُقال : لا يعمل رجل ولا امرأة بعد شيئاً لتقدمة القدس ؛ فكفَّ الشعب عن التقديم.[2] وغشّوا الالواح بذهب ، وصنعوا لها حلقاً من ذهب مكاناً للعوارض ، وغشّوا العوارض بذهب . وصنعوا للحجاب اربعة اعمدة من سنط وغشّوها ذهباً ، وعقاقيفها من ذهب[3] . وعمل بصلائيل التابوت من خشب السنط طوله ذراعان[4] ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وسمكه ذراع ونصف ، وغشاه بذهب خالص من داخل ومن خارج ، وعمل له اكليلاً من ذهب محيطاً به . وصاغ له اربع حلقات من ذهب . وصنع عتلتين من خشب السنط وغشاهما بذهب . وصنع غشاء من ذهب خالص طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف . وصنع كروبين من ذهب صنعة طرق . وعمل المائدة من خشب السنط طولها ذراعان ، وعرضها ذراع ، وسمكها ذراع ونصف ، وغشاها بالذهب الخالص ، وعمل لها اكليلاً من ذهب يحيط بها . وعمل اكليل ذهب لحافتها محيطاً بها . وصنع الآنية التي على المائدة قصاعها

١) خروج ٣٥:٥ و ٢٢ ٢) خروج ٣٦:٦
٣) خروج ٣٦:٢٤ و ٢٦ ٤) طول الذراع ٥٥٥ ميليمترًا

ومجامرها وجاماتها وكؤوسها التي يُسكب بها من ذهب خالص . وعمل المنارة من ذهب خالص . منها كانت مُجَرها وشُعَبها كلها قطعة واحدة مطروقة من ذهب خالص . وصنع لها سبعة سرج ومقاطها ومنافضها من ذهب خالص ، من قنطار[1] ذهب خالص عملها مع كل آنيتها . وعمل مذبح البخور من خشب السنط طوله ذراع ، وعرضه ذراع مربعاً ، وسمكه ذراعان ، وقرونه منه ؛ وغشّاه ذهباً خالصاً سطحه وجدرانه من حوله وقرونه ، وعمل له اكليل ذهب محيطاً به . وعمل له حلقتين من ذهب تحت اكليله.[2] وكانت جملة الذهب الذي صيغ في جميع عمل المقدس ، وهو ذهب التقدمة ، تسعاً وعشرين قنطاراً وسبع مئة وثلاثين مثقالاً[3] بمثقال القدس.[4] اي نحو ١٠٤٤ كيلوغراماً تبلغ قيمتها ٤,٢٨٤,٧٣٣ فرنكاً ذهباً . وسعرها هوملاور (Hummelauer) ٣,٨٥٥,٧٣٣[5].

وما عدا ما ذُكر من الادوات فقد صنعوا الأقود وزناره من ذهب ، وطوقين لحجري الجزع من الذهب ، والصدرة صنعوها من ذهب ، ورصّعوا فيها اربعة اسطر من حجارة كريمة في الذهب ، وصنعوا لها سلاسل مجدولة صنعة ضفر من الذهب الخالص . وصنعوا ايضاً طوقين وحلقتين من الذهب ، وجلاجل من ذهب خالص[6].

ولما بنى سليمان بيت الرب في اورشليم ، جعل فيه من الذهب شيئاً جماً كثيراً . « وكان طول المحراب عشرين ذراعاً ، وعرضه عشرين ذراعاً ، وسمكه عشرين ذراعاً ؛ وغشّاه بذهب خالص . وصنع مذبحاً من الأرز تجاه المحراب وغشاه بذهب . وغشى سليمان داخل البيت بذهب خالص ، ومدّ سلاسل ذهب امام المحراب ؛ وغشى بالذهب جميع البيت بتمامه . وغشى مذبح

---

١) القنطار بالعبرانية « كيكّار » كان وزنه ثلاثة آلاف مثقال اي ٣٤ كيلوغراماً و ٥٣٣ غراماً.

٢) خروج ٣٧.

٣) كان وزن المثقال ١٤ غراماً و ٢٧٧ ميليغراماً.

٤) خروج ٣٨: ٢٤.

٥) طالع كتابه *In Exod., Paris, 1897, p. 348*

٦) خروج ٣٩.

المحراب كله بالذهب . وصنع كروبين سمك كل واحد عشر اذرع ، والجناح الواحد من الكروب الواحد خمس اذرع ؛ وغشى الكروبين بالذهب . وغشى بالذهب ارض البيت داخلاً وخارجاً . وصنع لباب المحراب مصراعين من خشب السَّمّ[1] وغشاهما بذهب . وصنع لباب الهيكل مصراعين ونقش عليهما كروبين وغشاهما بذهب محكم على النقش.»[2] وفوق هذا كله « صنع سليمان جميع ادوات بيت الرب ، المذبح من الذهب ، والمائدة التي عليها خبز الوجوه من الذهب ، والمناثر من ذهب خالص ، خمساً عن اليمين ، وخمساً عن الشمال امام المحراب ، والازهار ، والسرج ، والمقاط من الذهب . والطسوت والمقاريض ، والجامات ، والصحون ، والمجامر من ذهب خالص ، والمفاصل لمصاريع البيت الداخلي وهو قدس الاقداس ، ولمصاريع البيت وهو الهيكل ، من ذهب . ولما أكمل جميع العمل الذي صنعه الملك سليمان لاجل بيت الرب ، ادخل سليمان اقداس داود ابيه من الفضة والذهب والادوات وجعلها في خزائن بيت الرب.»[3]

وكان داود قد جهّز في حياته الذهب لبيت الرب مئة الف قنطار من الذهب ، كما ورد في سفر اخبار الايام الاول.[4] فالمئة الف قنطار التي جهّزها داود تبلغ قيمتها اربعة عشر مليارًا من الفرنكات الذهب.[5] وقد اعطى داود فضلاً عنها من ماله الخاص ثلاثة آلاف قنطار ذهب ، من ذهب اوفير.[6] وتطوّع رؤساء الآباء ، ورؤساء اسباط اسرائيل ، ورؤساء الالوف والمئين مع رؤساء عمل الملك ، وادّوا لخدمة بيت الله من الذهب خمسة آلاف قنطار.[7] « وارسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان قوماً ملاحين عارفين بالبحر ، فاتوا اوفير ، واخذوا من هناك اربع مئة وعشرين قنطاراً من الذهب

---

١) السَّمّ شجر الزيتون البري ، الواحدة بالهاء. ٢) ٣ ملوك ٦ : ٢٠-٣٥.
٣) ٣ ملوك ٧ : ٤٨-٥١. ٤) ٢٢ : ١٤ و ٢٩ : ١٤-١٨.
٥) معجم الثروة لليكورو ، المجلد الرابع ، عمود ١٨٦٣.
٦) لم يُتوصل الى معرفة موقع اوفير . فمنهم من جعلها في بلاد العرب ، ومنهم في افريقية ، ومنهم في الهند. ٧) اخبار الايام الاول ٢٩ : ٢-٧.

واتوا بها الملك سليمان.»[1] اي ١٧,٨٦٤ كيلوغراماً. «وكان وزن الذهب الذي ورد على سليمان في سنة واحدة ستمائة وستة وستين قنطار ذهب.»[2] اي ٢٨٠,٠٧٥ كيلوغراماً تنتهي قيمتها الى نحو ٩ مليارات من فرنكات الذهب. وليس هذا بكثير على ابن داود الذي جمع الذهب كالقصدير.[3]

ولما عاد بنو اسرائيل من جلائهم حملوا معهم شيئاً كثيرا من الذهب لبناء بيت الرب. وردّ كورش ملك فارس الآنية التي كان اخرجها نبوكدنصر من اورشليم، «وهذا عددها ثلاثون طستاً من الذهب، والف طست من الفضة، وتسعة وعشرون سكيناً وثلاثون جاماً من الذهب، واربع مئة وعشرة جامات من الفضة من الرتبة الثانية، والف من آنية اخرى، جميع آنية الذهب والفضة خمسة آلاف واربع مئة اصعدها ششبصر عند اصعاد اهل الجلاء من بابل الى اورشليم.»[4] ثم ان «بعض رؤساء الآباء اعطوا على حسب وسعهم لخزينة العمل واحداً وستين الف درهم[5] من الذهب.»[6] اي ما يبلغ ١,٨٠٠,٠٠٠ فرنك.

وما ملك ارتحشستا حتى اوعز الى عزرا ببناء بيت الرب. فشخص عزرا من بابل، ورؤساء الآباء. وجمع هؤلاء الرؤساء عند نهر اهوى[7]، وفرز اثني عشر من رؤساء الكهنة، ووزن لهم الفضة والذهب والآنية... «ووزنتُ لهم ست مئة قنطار فضة من اواني الفضة، ومئة قنطار من الذهب، وعشرين جاماً من الذهب الف درهم.»[8] واعطى نحميا الف درهم ذهب. ومن رؤساء الآباء من اعطى لخزينة العمل عشرين الف درهم من الذهب. والذي اعطاه سائر الشعب عشرون الف درهم من الذهب.[9]

وقد اخبر يوسيفوس المؤرخ اليهودي ان هيكل هيرودس كان له تسعة

---

١) ٣ ملوك ٩: ٢٧-٢٨.
٢) ٣ ملوك ١٠: ١٤-٢٨.
٣) سيراخ ٤٧: ٢٠
٤) عزرا ١: ٩-١١.
٥) الدرهم اربعة غرامات ونصف.
٦) عزرا ٢: ٦٨-٦٩.
٧) اختلفت الآراء في تعيين موقع هذا النهر. والراجح في الرأي انه قناة تنشعب من دجلة او الفرات. وذهب بعض النقاد الى ان اهوى هي قناة المَيْث.
٨) عزرا ٨: ٢٦-٢٧.
٩) نحميا ٧: ٧٠-٧٢.

ابواب منشّاة بذهب وفضة ، وان داخله كله كان مغشى بصفائح الذهب . ولما فتح وسبسيانوس وطيطوس اورشليم نقلت مائدة الذهب والمنارة الى رومية.[1]

ولما شاعت عبادة الاصنام في اسرائيل على اثر تمرّده على بيت داود ، من اجل حماقة رحبعام بن سليمان ونقص فطنته ، عمل يربعام عجلين من الذهب ، وجعل احدهما في بيت ايل ، والآخر وضعه في دان.[2]

ثم من لا يقضي العجب من تمثال الذهب الذي صنعه نبوكدنصر . فهذا التمثال كان طوله ستين ذراعاً وعرضه ست اذرع . ولعله لم يكن كله من الذهب ، بل كان مغشى بالذهب فقط . ومهما كان من ذلك فان تغشية تمثال طوله ٣٠ متراً في عرض ثلاثة امتار تحتاج الى نفقة جسيمة . وقد روى هيرودوت[3] انه كان في بابل تمثال من ذهب لاله جالس وعلى مقربة منه مائدة ذهب ، وعرش ذهب ، ودرجة ذهب ، يبلغ الكل ٨٠٠ قنطار ، قيمتها ٦٠,٥٨٨,٠٠٠ من الفرنكات الذهبية. وذكر ايضاً مذبح ذهب وتمثالاً مصمتاً من الذهب طوله اثنا عشر ذراعاً . ثم ان ديودر الصقلي[4] وصف ثلاثة آلهة كانت فوق الهرم البابلي . فهذه الآلهة ومذابحها وآلاتها كان وزنها يبلغ ٥٨٥٠ قنطاراً من الذهب اي ١٤٣,٥٥٩ كيلوغراماً قيمتها ١٣٠,٦٧٧,٠٠٠ من فرنكات الذهب.[5] وفي هياكل الهند اليوم ما لا يقدّر من الذهب.[6]

الترف في المملكة الرومانية

في الجيل الثاني قبل المسيح ، كان صاحب الستين قنطاراً (*talent*) اي ٣٧٥,٠٠٠ فرنك لا يعد غنياً. فشيبيون الافريقي اعطى كل واحدة من بناته ٥٠ قنطاراً اي ٣٣٧,٠٠٠ فرنك. واوصى م. اميليوس ليبدوس الّا يُنفق على دفنه اكثر من مليون آس اي ٢٨٥٠٠٠ فرنك . وكان يُقوّم بيت الخطيب

---

١) *Bell. Jud., V,3*
٢) ٣ ملوك ١٢ : ٢٨-٢٩.
٣) *I, 183*.
٤) *II, 9*.
٥) معجم التوراة لفيكورو ، المجلد الرابع ، عمود ١٨٤٥
٦) *Cf.* P. Loti, *L'Inde*, Paris, *p.* 204-205, 430-432

كرسوس ١٧,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات . ودروزوس المحامي عن حقوق الشعب كان يملك آنية فضية قيمتها ٩٠٠,٠٠٠ فرنك . وسكستوس روشيوس الذي هلك في فتنة سيلى كان له ١٣ عقاراً تبلغ قيمتها ١,٧١٥,٠٠٠ فرنك . ول. دومتيوس اهنوبربوس القنصل وعد توزيع عشرين الف هكتار من اراضيه على عشرين الف جندي . وبمبيوس كان يحوز ٢٠ مليوناً من الفرنكات ، والممثل ازوب ستة ملايين ونصف مليون ، وكرسوس المثري بعد اجزال الهبات ، واسناء الصلات ، ترك ٥٠ مليوناً . والعائف ليتولوس الذي عاش في عهد طيباريوس كان يحوز ثلاث مئة مليون سسترس[1] اي ٦ ملايين . ونرسيس العتيق في عهد كلوديوس كان يملك اربع مئة مليون سسترس اي ما يساوي ثمانين مليوناً . ونال حفيد هورتنسيوس من اوغسطوس مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ فرنك ، واعطى طيباريوس ٤٠,٠٠٠ فرنك كلًا من اولاد هورتنسيوس الاربعة ، واشترى اوكتاثيوس سمكة بالف فرنك . وكانت الديون آنئذٍ باهظة جداً . فقيصر كان عليه سبعة ملايين من الدين ، ومرقس انطونيوس احد عشر مليوناً ، وكوريون القنصل سبعة عشر مليوناً ، وميلن اكثر من عشرين.[2]

وفي عهد نيرون كان ستة ملّاكين مستولين على نصف اقليم افريقية . ولما باعت ملانية الصغيرة عقاراتها لتوزع ثمنها على الفقراء ، كان لها ثماني مئة عبد ، واملاك واسعة في كمانية وصقلية واكيتانية واسبانية . وكان لآل انيشية (Nicia) عقارات واملاك في كل مكان . ومدينة نيكوبوليس برمتها كانت للقديسة بولا.[3] بيد ان هذا الغنى الفاحش كان يضرّ بالمملكة ، لان هذه الملايين الكثيرة كانت تضيق عن سدّ احتياجات اربابها اصحاب الثراء ، وتكاد لا تكفيهم للقيام على العبيد والخصيان ومعالاة القصور ، وتشييد المصايف والصروح في ظاهر المدينة ، وجلب ماء الانهار على ظهور القناطر في القنوات الى بساتينها ، فضلاً عن الرواقات الطويلة الحاوية الاعمدة الفاخرة ، والخشب النادر ، والمعادن

١) كانت قيمة السسترس ٠,٢٥٦ من الفرنك .

٢) Paul Guiraud, *Lectures historiques*, Paris, 1896, p. 381-388.

٣) S. Hier., *Praefat. epist. ad Tit.*

السنية ، والرخام العزيز ، والفسيفساء الجميلة ذات التهاويل والتصاوير الحسنة المرصعة في السقوف والجدران ، والذهب والحجارة الكريمة المركبة في الحيطان ، والابواب المصنوعة من خشب الارز المرصع بالعاج ، والعُمُد ذات الرونق المعجب ، وتماثيل الرخام الابيض والفضة والبرنز المذهب ، وسجوف الحرير والبرفير الناعم الرقيق الشفاف ، وزجاج الكوى الملوّن ، وكاسي الفضة ، والزرابي الفارسية والهندية ، والفرش الوثيرة التي يجلس عليها ربات البيوت بين الازهار وروائح الند والعنبر ، والإماء والوصائف اللواتي يروحن عليهن بمراوح الذهب والحرير ، ويعطرن ويمتكن ارجلهن المخلخلة .[1]

وكان اولئك الاقوام يحرصون على جمع الكتب مفاخرةً ولا يقرأونها ، ويرصفونها رصفاً فوق مناضد مصنوعة من خشب الارز ، او يجعلونها في اصونة ثمينة ، ويباهون بما كتب منها بماء التبر . ولكنهم كانوا احرص على لذيذ الطعام والتأنق في المآكل منهم على جمع الكتب ، اذ انهم كانوا يبذلون المال الكثير في استجلابها واعدادها وفي تفتيق انفسهم ، واستعمال السرف والترف في استجادة المطابخ وانتقاء الوان الاقوات واصناف الاشربة . ففي وسط بيت المائدة كنت ترى خابية ذهب ملأى بالخمرة التاسية يشربونها بجامات مرصعة باللجين والنضار ، ويرصدون للخدمة العبيد الروقة الحديثي السنّ ويلبسونهم احسن الثياب . ومتى خرجوا الى المدينة تقدمهم موكب من الطفيليين والعبيد والخصيان والنخاشيين والمجانين ،[2] ومنادٍ ينادي امام سيده مطرباً في صوته ، ذاكراً القاب مولاه الجالس في مركب مذهّب دواليبه من فضة ، او الراكب على جواد وفي يده مروحة ، وعلى رأسه مظلة . وكان من عاداتهم اتخاذ البغال البيض لجرّ المراكب يلبسونها جلال البرفير والذهب ، ويجلسون في مراكبهم متفاخرين بثيابهم ونقوشها وانواع طرازها .

اما النساء فكنّ يخرجن في محفّات يستر جوانبها السجوف ، ويحملها البغال البيض المطهمة الحسنة الهيئة جالسات فوق الحشايا الفاخرة ، وقد جللن وجوههن

١) فم الذهب : المجلد ١١ ، صفحة ١٠٠ و ١٠ ص ١٨٩ ، و ٥ ص ٣٢١ .
٢) فم الذهب : المجلد ١١ ، صفحة ٥٦ – وفالون : تاريخ الرق ، المجلد ٣ ص ٢٥١

وشعورهنّ بالحجارة الكريمة ، ونحورهنّ بقلائد العقيان ، وايديهنّ بخواتم الذهب ، وارجلهنّ بالخفاف الملوّنة ، ولبسن رداء من جلود تيوس الجبل كله ذهب ،[1] وصبغنّ العيون والوجنات والخدود والاغفاء بالالوان البيضاء والوردية والسوداء ، وحملن في آذانهن قوت مئة عائلة ، كما قال القديس يوحنا فم الذهب.[2] وفي هذا الزيّ والآبهة كنّ يترددن الى الاسواق والملاعب والكنائس والميادين والحمامات ، وورائهن جمّ من الخصيان ،[3] فاضطرّ ذات يوم القديس فم الذهب الى توجيه هذا التعنيف اليهنّ : « هل تأتين الى هنا للرقص ام للصلاة ؟ »[4]

وحدّث عن حرص الرومانيات في الجيل الاول على التزيّن والتخضب والتحلّي ، ولا حرج . فان المرأة من ذوات الجدة واليسار كانت متى انبعثت من منامها تقصد حجرة الزينة حيث ينتظرها إماؤها . فتدنو منها واحدة وفي يدها صفحة مملوءة حليب اتان وتغسل به وجهها ، ثم تدنو اخرى فتبيّضه وتحمّره واخرى ترجّج الحاجبين والاهداب ، واخرى تقدم لسيدتها علكة تطيب النكهة وتأتيها بقارورة من العقيق فيها بول صبي فيُذاف فيه شيء من مسحوق حجر « الخثّان » والوخام وتغرك به اسنانها ، ثم تجعل لها فيها اسنانها الصناعية العاجية المركبة في الذهب . واذ رأى مرسيال الشاعر مبالغة النساء في الزينة ، وافراطهنّ في تغيير خلقتهنّ قال هازئاً بهنّ : « انت يا غالّة مركبة من اكاذيب . فبينما انت عانشة في رومية يكون شعرك نابتاً على ضفاف الرين . ومتى خلعت عند المساء ثيابك الحرير تخلعين ايضاً اسنانك ، فيبقى ثلثاك في الليل ضمن الاسفاط . ان خديك وحاجبيك عمل امائك . »

وتدنو اخرى وتصبغ لها شعرها باصباغ مشقّرة ، وتجعده ، وتضمخه ، وتزويه بالزردين والعطور الشرقية ، وتعقّده في قفاها ، وتعمّر لها فاها . ولا

---

١) فم الذهب : المجلد ٧ ، صفحة ٨٢٦ و ٩٩ ، ص ١٥٣ ، و ٩ ص ١٥٢ .
٢) فم الذهب : المجلد ٧ ، ص ٨٢٨ .
٣) فم الذهب : المجلد ٣ ، ص ١٧٦ و ١٥٣ .
٤) فم الذهب : المجلد ١١ ، ص ٥١١ .

تزال امة في تلك الاثناء واقفة في يدها مرآة يدها من عاج وإطارها مرصع بالدر . ثم تنظف لها أمة اخرى اظفار يديها ورجليها ، وتلبسها نعليها وقلادتها وقرطيها واساورها الذهب وخواتمها في كل اصبع خاتمين ما عدا الوسطى ، فتجلس حينئذٍ في محفّتها محفوفة بامائها ووصائفها اللواتي يروّحن عليها بمراوح الريش الشين ، ويتناوبنَ على حمل المظلة فوق رأسها.[1]

وكان الشبّان يباهون النساء في الزينة والتجمّل والتحلي والتطيب والتطر ولبس الثياب المطرزة ، والنعال الملوّنة ، والاكسية الشفافة ، صارفين كل وكدهم الى الترف والتخنث . وكان اذا دخل الثري منهم الى الحمام اخلاه له القوم ، واذا سلموا عليه اشاح عنهم وجهه ، ومدّ لهم يده او ركبته ليقبلوها فقط .

هذا بعض من عدّ احببنا ان نفكّه به القارئ الكريم ليس الّا.

---

(١) Guiraud, *p.* 215-221.